كتب

يضفي الكتاب الصادر بطبعة جيب جديدة قيمة توضيحية لمفهوم العنصرية، فكراً وممارسة، ولا يقتصر على مجال الاختلافات البيولوجية، بل يشدد على طابعها متعدد الأشكال إذ يمكن أن تبدأ بالبيولوجيا، وأحياناً بالثقافة، ثم تُعمّم على شخصية المتهم وحياته ومجموعته

التبخيس «المفيد» لقيمة الاختلاف

«العنصرية» لألبير ميمي

محمود عبد الغني

إن عدد الطبعات التي صدر فيها كتاب «العنصرية» للكاتب التونسي ألبير ميمي (1920-2020)، منذ طبعته الأولى سنة 1982 إلى اليوم، يدلّ على أهمية هذه الدراسة (224 صفحة) وتجدّد أفكارها ومواكبتها لمراحل التاريخ والزمن. وبذلك فالكتاب الذي صدرت منه طبعة جديدة عن سلسلة «فوليو» لكتاب الجيب (غاليمار)، لا يزال يمثّل سلطة فكرية بين الدارسين. وُلد ألبير ميمي في «الحارة»، الحي اليهودي في تونس، لأب يهودي إيطالي وأم تونسية يهودية. عندما احتل الألمان تونس، تم حبسه في معسكر عمل قسري قبل اللجوء إلى الجزائر. بعد الحرب، قام بالتدريس والحملات من أجل استقلال تونس، ولكن، رفضته الدولة الجديدة بصفته يهودياً، واستقر في باريس حيث كانت لديه مكانة ناجحة في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا.

«العنصرية هي التبخيس المفيد لقيمة الاختلاف» أو، بشكل أكثر تقنية، «العنصرية هي تثمين الاختلافات الحقيقية أو الوهمية، بشكل عام ونهائي، لصالح المتهم وعلى حساب ضحيته، من أجل إضفاء الشرعية على العدوان». منذ حوالي ثلاثين عاماً، اقترح ألبرت ميمي هذا التعريف للعنصرية، والذي تم استخدامه منذ ذلك الحين على نطاق واسع من قبل الباحثين والأساتذة في كل المؤسسات التعليمية. كما أن هذا التعريف الحادّ لم يتوقف قط عن إثراء وتوضيح تفكير الكاتب التونسي في العنصرية، على امتداد العديد من النصوص، سواء كانت فكرية، سياسية أو روائية. سنجد في هذا الكتاب، بالإضافة إلى المكانة المركزية للعنصرية في فكر المؤلف، قطبي هذا التعريف: العلاقة الوثيقة بين العنصرية ومفهوم الاختلاف («العنصري»، كما يكتب، «يدّعي دائماً استخدام بعض الاختلاف للاستفادة منها»)، ومن ناحية أُخرى، القرابة بين العنصرية والقمع («العنصرية هي رمز وملخّص لكل اضطهاد»). وفي الأخير يطوّر المؤلف، بحجج جديدة، تمييزه بين العنصرية، التي يقترح حصرها بدقة في المعنى البيولوجي، ورُهاب المغايرة، والرفض العدواني للآخرين، والتي ستكون العنصرية بها ليست سوى حالة خاصة.

في هذه الدراسة، كما هو الحال في جميع كتاباته، يتساءل ألبير ميمي عن العنصرية التي استمد منها تعريفاً موجزاً وثابتاً. ماذا يقول لنا من جديد؟ إن العنصرية هي تثمين الاختلافات، المعممة والنهائية، الحقيقية أو المتوخاة، لصالح المتهم وعلى حساب ضحيته، من أجل تبرير عدوان أو امتياز. إنه يعترف بأن «الاشتباه في الأجنبي والمختلف كان موجوداً دائماً». هذا الاشتباه في الأجنبي هو في الواقع عالمي ومفهوم تماماً: في مجتمع ريفي تقليدي، قائم على احترام عادات الأسلاف، يظهر الأجنبي كإلكترون حرّ، كائن مستقل عن أي ارتباط وبالتالي يميل إلى رفض الاتفاقيات العرفية. لذلك من الطبيعي أن نكون حذرين منه لأنه عنصر مقلق محتمل (سيقول البعض إن الاضطراب هو مصدر للتقدّم وأن التقدم مفيد، لكن هذه قصة أخرى).

إن تحليل ألبير ميمي معيب بسبب عدم التمييز بين الشعور الفردي الذي يقود الجميع إلى عدم الثقة في الغريب، والاستغلال الضار لهذا الشعور الذي يمكن أن يصنعه كيان جماعي: فالخوف من الآخرين والحدّ من قيمتهم أو احتقارهم هما نقطتا ضعف متأصلتان في النفس البشرية. يميل الأشخاص غير الراضين، ضحايا جبنهم، إلى تبرئة أنفسهم من خلال إلقاء اللوم على الآخرين لفشلهم واستيائهم وعدوانيتهم، هنا يمكن النظر إلى أطروحات هنري لابوريت حول الوظيفة الصحية للعدوانية. ولابوريت هو طبيب تخدير وجرّاح فرنسي بنى تدريجياً رؤيته الخاصة للسلوك البشري والعوامل البيولوجية التي تحدّده، قد نأسف لذلك، لكن هذا هو الحال.

لكن ما هو مأسوف عليه ويمكن تجنّبه هو أن هذه المخاوف يتم استغلالها، وتنظيمها من قبل بعض الأيديولوجيات. يذكّرنا ألبير ميمي بوضوح: «العنصرية لها وظيفة: في الأساس، هي تحدد الهيمنة وتضفي عليها الشرعية». إن هيمنة مجموعة من قبل مجموعة أخرى هي في طبيعة العلاقات الإنسانية. لكن هذه الهيمنة لا تقتصر على الاختلافات العرقية. فالمرء إما أن يهيمن عليه أو يهيمن عليه انتماؤه الطبقي أو القومي أو الديني أو الجنسي أو اللغوي أو العرقي. كما يمكن للمرء أيضاً أن يكون كليهما في نفس الوقت، على سبيل المثال يُهيمَن عليه بوصفه بروليتارياً ومهيمِناً كذكر. هذه الازدواجية تسمح للجميع بتحمّل حالة القهر. من هذه الناحية فإن الهيمنة تغطّي مجموعة واسعة جداً من الحالات التي تتجاوز إطار العرق بالمعنى البيولوجي. وبالتالي فإنها تنطبق على العلاقات بين الكاثوليك والبروتستانت في أولستر (أيرلندا الشمالية)، أو بين البراهمة والداليت في الهند، إلخ. إن توسيع مصطلح العنصرية ليشمل كل هذه المواقف يعني إفراغه من معناه: إذا كان كل شيء عنصرية، فلا شيء عنصرية بعد الآن. لا بدّ من ذكر هذا الأمر الهام: إن الصلة التي يعقدها ألبير ميمي بين العنصرية والهيمنة لا تنطبق على معاداة النازية للسامية! في البداية، في عام 1918، لم تكن هناك علاقة هيمنة من قبل الآريين الألمان على اليهود. على العكس من ذلك، تم دمج هؤلاء الأخيرين بشكل جيد للغاية في الطبقات العليا من المجتمع الألماني، وبشكل عام كانوا أيضاً موضع تقدير كبير من قبل مواطنيهم. على الأكثر، عانوا من التحيز والسخرية من قبل الباريسيين مثلاً تجاه البريتونيين أو الأوفيرنات.

لم تمرّ أفكار ميمي المصرّح بها والمضمّنة في الكتاب دون نقد أو مراجعة. ففي عدد الرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر 2023 من مجلة hetoo.net المتخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية قدّم المؤرّخ والصحافي الفرنسي أندري لاراني عرضاً للكتاب وانتقد مجموعة من الأفكار في كتاب وفكر أ. ميمي. إذ قال إنه عند قراءة هذا العمل الرائد في تفكيك العنصرية، يشعر المرء بالحرج من حقيقة أن المؤلف يقتصر على الخلط بين العنصريين والغربيين البيض والمسيحيين. حتى أكثرهم سخاء هم، حسب قوله، عنصريون لا يعرفون أنفسهم! من ناحية أخرى، فهو لا يتصور أن الآخرين (السود واليهود، إلخ) يمكن أن يكونوا هم أنفسهم عنصريين، إلا في رد فعل على العنصرية البيضاء المسيحية الغربية بصفتهم مضطهدين إلى الأبد.

لقد اقترح ألبير ميمي، منذ حوالي ثلاثين عاماً، هذا التعريف للعنصرية، والذي تم استخدامه منذ ذلك الحين على نطاق واسع من قبل الباحثين. لم يتوقف قط عن إثراء وتوضيح وتفكيك العنصرية والعنصريين في كل الثقافات والديانات. لكن، من الناحية النفسية، إن العنصرية هي رهاب المغايرة: «رفض الآخرين باسم أي اختلاف». يشير هذا المصطلح إلى الخوف المنتشر والعدواني من الآخرين الذي يمكن أن يتحول إلى عنف جسدي. العنصرية هي تعبير خاص عن رهاب المغايرة. «العنصرية هي التبخيس المفيد لقيمة الاختلاف» أو، من الناحية الفنية، «العنصرية هي تثمين، معمم ونهائي، للاختلافات الحقيقية أو الوهمية، لصالح المتهم وعلى حساب ضحيته، من أجل إضفاء الشرعية على العدوان». وهذا ما لا نكف اليوم على ترديده جميعاً أمام أفعال العنصرية في العالم، تجاه الفلسطينيين، والمهاجرين على امتداد أوروبا، والسود في أميركا، وباقي الرقع الجغرافية التي ترتكب فيها العنصرية على مدار الساعة. وذلك ما يجعل كل من كان ضحية لعنصرية معينة، مديناً لألبير ميمي بهذا التفكيك وهذه المعالجة الفلسفية اليقظة.

لقد أضفى الكتاب قيمة توضيحية لمفهوم العنصرية، فكراً وممارسة، ولم يقتصر على مجال الاختلافات البيولوجية، بل على العكس من ذلك، شدد على طابعها متعدد الأشكال: «في الواقع، الاتهام العنصري في بعض الأحيان يبدأ بالبيولوجيا، وأحياناً بالثقافة، ثم يُعمَّم على شخصية المتهم وحياته ومجموعته. في بعض الأحيان تكون السمة البيولوجية متردّدة أو حتى غائبة. باختصار، نحن نواجه آلية أكثر تنوعاً وبلا حدود، وأكثر تعقيداً، وللأسف أكثر شيوعاً مما قد يقودنا مصطلح العنصرية الصارم إلى الاعتقاد».

(شاعر وروائي ومترجم من المغرب)

تعريفٌ مرجعيّ

إن تعريف ألبير ميمي المدهش، الذي قدمه سنة 1964، وتمّ اعتباره تعريفاً مرجعيّاً، يشكل توليفة رائعة لعناصر المكونة للموقف العنصري: الإصرار على الاختلافات، سواء كانت حقيقية أو وهمية، وتثمينها لصالح العنصري، وإضفاء الطابع المطلق عليها من خلال التعميم ومنحها طابعاً نهائياً، وأخيراً، استخدامها ضد الآخرين من أجل الاستفادة منها.

وظيفة العنصرية تحديد الهيمنة وإضفاء الشرعية عليها

إذا كان كل شيء عنصرية، فلا شيء عنصرية بعد الآن

ألبير ميمي في منزله بباريس، 2004 (Getty)

نظرة أولى

كأن تكون فلسطينيّاً: شذرات من سيرة ذاتيّة، عنوان كتاب الناقد الفلسطيني فيصل درّاج (1942)، الصادر عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر». من الفصل الأوّل نقرأ: «كان صباحاً بارداً يدفعني إلى الخارج ولا أفهم ما يقول. أذكر أُمّاً تغلق باب الدار بمفتاح كبير، تخرج صامتة وتعود إلى الباب تفتحه وتدخل الدار لحظات، تعود وتغلق الباب وتندفع إلى الأمام، تخفي عينيها بحجاب من ضباب. وأذكر شاحنة رمادية مُخلّعة الصوت ومطراً وهدوءاً كساه البرد، أتبع خطوات أُمّي ولا من أسئلة... وأتذكّر نفسي صبيّاً يسافر مع عائلته إلى موقع قريب».

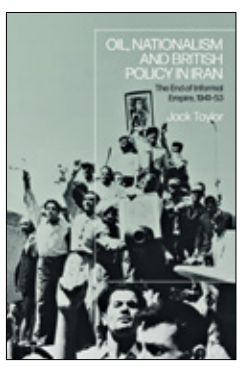

يستكشف الباحث البريطاني جاك تيلور في كتابه **النفط والقومية والسياسة البريطانية في إيران: نهاية الإمبراطورية غير الرسمية 1941 - 1953**، الصادر حديثاً عن منشورات «بلومزبيري»، وضع إيران داخل الإمبراطورية غير الرسمية البريطانية، ويوضّح أنّ حكومة حزب العمّال البريطانية بقيادة كليمنت أتلي (1945 - 1951)، استخدمت الضغط والدعاية للحفاظ على سيطرتها على النفط الإيراني لمواجهة الوضعيات الجديدة التي فرضتها الحرب الباردة الناشئة، رغم المقاومة المحلّية التي واجهتها بأشكال متنوّعة، بما في ذلك النقابات العمّالية والتيارات ذات التوجّهات القومية الشعبية.

عن «الآن ناشرون وموزّعون»، صدر كتاب **تفكيك الصورة النمطية عن الدولة العثمانية.. مؤسسة «الدفشرمة» نموذجاً**، للكاتب والأكاديمي الكوسوفي السوري محمد م. الأرناؤوط. يعود الكتاب إلى دراسات بلقانية استندت إلى وثائق عثمانية لتقدّم صورة مختلفة عن مؤسسة (الدفشرمة)، التي تضمّ النُّخبة العسكرية (الانكشارية)، والنخبة الإدارية (الولاة والوزراء)، التي تشكّلت منذ عهد مراد الأول وحتى محمد الفاتح، وجاء منها ولاةٌ كبار عُرفوا بما تركوه من منشآت عمرانية ضمن أوقافهم التي تذكّر بهم حتى اليوم؛ مثل مصطفى لالا باشا، وخسرو باشا، وسنان باشا.

في كلّ مجرّة مثل مجرّتنا درب اللبانة، توجد مئات المليارات من النجوم على غرار النجم المسمّى الشمس، وهو من النوع المتوسّط وهناك ما هو أكبر وما هو أصغر، لكنّ السؤال يبقى كيف نشأ الكون، ومتى ولماذا؟ أسئلة شائعة وتأسيسية ينطلق منها الباحث العراقي جواد بشارة في كتابه **كون مرئي وأكوان خفية: نظرات في أطروحة الأكوان المتعدّدة** الصادر عن «دار ومكتبة أهوار»، وفيه يُضيء آخر الدراسات العلمية حول نظرية الانفجار الكبير التي كلّ ما نعرفه عنها هو بفضل نسبيّة آينشتاين وفيزياء الجسيمات الأولية أو ميكانيك الكوانتوم أو الكموم.

عن دارَي «سرد» و«ممدوح عدوان»، صدرت روايةٌ جديدة للروائي السوري ممدوح عزّام بعنوان **الرجُل الرفيع بالقميص الأبيض**. يدور العمل حول شخصية شاكر الصافي الذي تُثار تكهّنات كثيرة حول اختفائه، خصوصاً أنّه أمضى حياته على الهامش، غير مرئي تقريباً، ولم يتدخّل في شيء ولا سعى يوماً إلى شيء. من هذا الحدث، ينطلق عزّام ليروي المدينةَ في زمن الفوضى والجنون. نقرأ على الغلاف: «الرجُل الرفيع بالقميص الأبيض مقاربةٌ للخوف ومعناه وآلياته، وبحثٌ عمّا تتركه النزاعات والحروب من خراب، لا على المكان فحسب، بل على البشر أنفسهم».

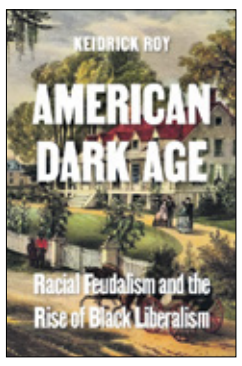

العصر الأميركي المظلم: الإقطاع العنصري وصعود الليبرالية السوداء، عنوان الكتاب الذي صدر عن «منشورات جامعة برينستون» للباحث كيدريك روي. يضيء الكتاب كيفية تبنّي المدافعين عن التسلسل الهرمي العنصري ضمن منظور يشابه العصور الوسطى في أوروبا، مقابل عدد من المفكرين المناهضين للعبودية باعتبارها وصمة عار، من أمثال فرانسيس إلين واتكينز هاربر، وهوزيا إيستون، وهاريت جاكوبس، سعوا إلى إلغائها قبل اندلاع الحرب الأهلية عام 1861، وتركّزت انتقاداتهم على بنية المجتمع الأميركي وتناقضها مع قيم الحرية الفردية والمساواة والتقدم.

ثناء على الجيل الجديد، عنوان كتاب للباحث العراقي عبد الجبار الرفاعي، صدر عن دارَي «الرافدين» و«تكوين». انطلاقاً من تجربة عمله في التعليم لأكثر من أربعين سنة، يُخصّص المؤلّف هذا العمل للحديث عن الجيل الجديد من الكتّاب والباحثين والأكاديميّين، في محاولة لـ«تفسير ما يُميّز جيل الأبناء ويجعله متفوّقاً على آبائه وأسلافه»، وفق تعبيره. يكتب الرفاعي: «عملتُ في التعليم أكثر من أربعين سنة، وكنتُ وما زلت أقرب لرؤية جيل الأبناء من رؤية جيلي. ذلك ما يدعوني للكتابة عن هذا الجيل، وتثمين منجزه اليوم، وما يعِد به غداً».

للباحث المغربي محمد نور الدين أفاية، صدر عن «المركز الثقافي للكتاب» كتاب **الزمن المنفلت: هل ما يزال المستقبل مرغوباً فيه؟**. يضمّ العمل قسمَين؛ يعالج الأوّل مسألة الزمن في علاقتها برهانات التقدّم وما يشغل الفكرَ بسبب تسارُع مستويات الوجود والحياة وما ينتج عنه من اهتزاز في العلاقات مع الذات والآخر والمكان والثقافة، كما يتناول التفلسف في السياق العربي وتجلّيات الفكر الفلسفي الأفريقي. ويتضمّن الثاني مراجعات لنصوص مفكّرين دعوا إلى استنبات أسباب النهضة والتحديث والاعتراف بالتعدّد الذي يشكّل مصدر ثراء للرأسمال الرمزي والثقافة السياسية.